دومينيك لأوجين فرومانتان

بقلم

الأستاذ أحمد رشاد

يجد الباحث فى الأدب الفرنسى مؤلفات صغيرة تعتبر من أروع ما عرفته تقاليد القصة . فهى تجمع بين فن الأديب القاص وفن المشتغل بعلم الأخلاق ، دون اسهاب فى التفاصيل أو استطراد فى الحديث التافه فى بعض الأحيان ، والممل فى أغلب الأوقات ، مما يضر بوحدة الموضوع ويمنع القارئ من استيعابه .

إن هذه الروائع جديرة برضانا ، يتلهف الإنسان على قراءتها وتنطبع صورها فى ذهننا مهما كان موضوعها بسيطاً . انها تؤثر فى أعماقنا إلى حد يجعلنانشعر بالتجاوب مع أبطالها والعيش فى جوهم ومشاركتهم أفراحهم ، وأتراحهم وقلقهم وسكينتهم ، كأن هناك صلة عائلية بيننا وبينهم .

ونستطيع التنويه بطائفة من هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر نخص بالذكر منها :

— ادولف : لبنيامين كونستان

(**Adolphe** de Benjamin Constant)

— أميرة كليف : لمدام لافاييت

(**La Princesse de Clèves** de Mme de La Fayette)

— مون الكبير : لالان فورنييه

(**Le grand Meaulnes** d'Alain-Fournier)

— دومينيك : لأوجين فرومانتان

(**Dominique** d'Eugène Fromentin)

ونستبيح القارئ اليوم فى الحديث عن هذا الكاتب الأخير وعن الرواية الوحيدة التى ألفها .

* * *

شخصية فرومانتان

أنه رجل حساس ، عاطفى ، متواضع ، خجول ، منطو على نفسه ، مهذب ، مثقف ، ضعيف الصحة ، مولع بالعزلة ، له أصدقاء أوفياء يعتز بهم ، وهو زوج وأب سعيد ، فى بحبوحة من العيش ، يعرف كيف يتحبب إلى الناس بقدر ما يكره الفتن والدسائس . أما الأناقة والرشاقة ولين الجانب والبساطة فهى الصفات التى يمتاز بها .

ترك لنا الناقد المشهور « مارسيل ارلان » (Marcel Arland) وصفاً عن الرجل وهو فى أوج نضجه بقوله : « كان رجلا قصير القامة ، نحيل الوجه ، لائح القوة ، بارز العظام ، أصلع الرأس ، متدلى الشاربين ، له لحية تكسو خديه وتحجب عنقه فتكسب وجهه استطالة » .

ووصفتـــه الروائية الشهـــيرة « جورج ساند » (George Sand) التى أهدى مؤلفه إليها قائلة : « إن ملامح وجهه معبرة أيما تعبير ، وعينيه جميلتان . أما حديثه فيشبه لوحاته وكتاباته تألقاً وقوة ومتانة ، وتلويناً وكمالا حتى إن المستمع إليه لن يمل ترداد حديثه مهما طال . . . وهو يتمتع باحترام يستحقه ، حيث إن أطوار حياته لا تقل رقة عن ذوقه الرفيع ، وعقله الراجح ، ومثابرته وعلو همته . فما أسعد الذين يستطيعون الفوز بصداقة هذا الرجل الممتاز الشمائل » .

ونجد « ماكسيم دوكان » (Maxime De Camp) يصوره هكذا فى « ذكرياته الأدبية » (Souvenirs littéraires) : « لم أر جسما نحيلا يكتنز مثل هذه الصفات الخلابة . كان عصبى المزاج ، بلغت حساسيته درجة تجعله يتلقى الانطباعات والتأثرات من كل حدب وصوب . ثم يختزنهاليجعل منها زاداً لإنتاجه الأدبى . . . ولم تكن مثاليته النزاعة إلى الكمال لتشبع رغباته . . كما أن ضعف صحته وتغلب المرض عليه أحياناً ، يعتبران من العوامل التى تزيد فى قلقه المطبوع عليه . . . فيتخاذل ولا ينكب على التأليف إلا بجهد أو كما يقال ، كان فى حاجة إلى التدرب على المثابرة » .

وإذا عجز العقل عن التغلب على الانفعالات الخفية ليعبر عنها بأفكار مقتضبة فى وضوح ، فان الأديب يجد نفسه فى حالة جهاد مضن ليخفى هذا العجز تحت قناع المحسنات اللفظية وزخرفة الأسلوب . ولكن « أوجين فرومانتان » ليس فى حاجة إلى بذل هذا الجهد فانفعالاته تنساب فى هدوء وتنساق مع أسلوبهالذى يصور الأفكار فى وضوح والأحاسيس فى صراحة .

ولم يستعمل « فرومانتان » وهو الكاتب والرسام ، إلا البساطة فى اللغة ، والقوة فى التلوين حيث استطاع تجنب الكلمات الشاذة والألوان الصارخة والتراكيب اللغوية والحشو والتعقيد لاعتياده تصوير خلجات نفسه بدقة نادرة وبصيرة وقادة تبعثعلى الاعجاب والاحترام لا يرفع صوته حتى لو كان فى شدة الألم ، بل يطيب له الحديث بصوت خافت . وهذه الرزانة وذلك الاعتدال فى الوصف يضفيان على أدبه قيمة وروعة . ويزودانه بسحر أخاذ . وفنه يدل بصراحة على أن تصوير أى منظر مهما كان ساطع الألوان ، مستطاع بكلمات رزينة هادئة .

إن « أوجين فرومانتان » رجل الزهد المتواصل . وهذا الميل إلى الزهد وتلك اللذة التى يشعر بها عندما ينكر ذاته ، وهذه المقدرة على هروبه من نفسه تشكل صميم أخلاقه . لقد هجر القضاء ، وترك السياسة وتخلى عن الشهرة الأدبية ، بل تنازل عن الحب الذى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، لأنه لا يهتم بالهوى ، ولا بالظفر بالمحبوب ، بقدر ما يهتم بالأحاسيس التى يبعثها الهوى فى نفسه .

وهو غير مستعد ليعيش حياة آلاف الناس من حوله ، بل يطمع فى حياة جوانية ، حياة لا تسير به إلى السعادة المنشودة ، وإنما حياة يهذبها هو طبقاً لمزاجـــه ويحاسب نفسه فيها حسب ادراكه . وله نفس تجمع بين الجموح فى الهوى وكبحه ، والاقدام عليه والخوف منه ، تشبه فى ذلك عباب اليم فى مده وجزره .

ولقد كتب فى مقدمة روايته يقول : « لقد وجدت الثقة والطمأنينة وهما خير من الافتراضات والتكهنات . لقد أصبحت على وفاق مع نفسى ، وفى هذا أكبر نصر يمكن احرازه على المستحيل . وبعد أن كنت مهملا من الجميع ،أصبحت نافعاً للبعض . واستخلصت من حياتى التى ضنت بالأمل المنتظر منها ، شيئاً غير منتظر : التواضع والحذر والحجا . فلا تجدر بى الشكوى بعد أن صنعت حياتى حسب رغباتى وكفاءاتى. فجاءت كالشجرة المجردة من الشوائب ، تراها وارفة عن قرب قد تشعبت جذورها فى بطن الأرض لتزيدها رسوخاً وثباتاً » .

ولا شك أن مدينة « لاروشيل » (La Rochelle) مسقط رأس « فرومانتان » أثرت فى خياله وفى نفسه بما حبتها الطبيعة من صفاء الجو وعبوسه ، ومن رحبة الأرض التى لا ترى فيها عوجاً ولا امتا ، تريك الأفق البعيد ، قد قامت عليها أسوار واستحكامات ودور أثرية تحكى عن ماضيها المجيد . وناهيك عن جمال نهرها وأرصفة ثغرها ، ويشوب كل ذلك تناقض أنوارها وظلمتها وحياة أهلها الزاخرة التى كانت تنعكس على نظرات الفنان الشاب .

عاش « فرومانتان » طيلة حياته ، على تأملاته فى البلدة التى ولد فيها وعلى ما ورثه من عادات وأخلاق آبائه وأغلبهم من البروتستانت ، وعلى ما احتفظ به من دفء الحياة العائلية وذكريات الماضى :

لم يترك « فرومانتان » مريدين تتلمذوا عليه وإن لاح لنا أن أحلام « بيير لوتى » (Pierre Loti) فى طليطلة ، وتأملات « موريس باريس » (Maurice Barrès) فى لبنان ، وتحاليل « بول بورجيه » (Paul Bourget) البارعة ، هى ثمرة الانطباعات تركتها قصص رحلات « فرومانتان » فى نفوس هذه الأسماء اللامعة فى ميدان الأدب الفرنسى :

ومن الثابت أن قصة « دومينيك » قد أثرت ، بلا ريب ، على بعض الكتاب أمثال « أندريه جيد » (André Gide) و « رونيـــه بواليف » (René Boylesve) و « آلان فورنييه » (Alain-Fournier) عندما حرروا مؤلفاتهم الرائعة : « الباب الضيق » (La porte étroite) و « الصـــديق المخلص » (Le meilleur ami) و « مون الكبير » (Le grand Meaulnes)

حياته

ولد « أوجين فرومانتان » فى ٢٤ من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٠ فى « لاروشيل » كما سبق أن ذكرنا .

وقضى سنى طفولته وشبابه فى صميم الفن الروائى ، دون أن يشاطر أهله أفكارهم أو يتأثر بها . ورغم ما انطبع عليه من فيض العاطفة وروح ميالة إلى الاستغراق فى الأحلام ، فانه لم يلجأ فى مؤلفه الذى نحن بصدد دراسته إلى المؤثرات الخطابية أو الخرافات أو الافراط أو الانفعالات الصاخبة أو أناشيد اليأس أو النحيب أو الشعر الغنائى أو الاسهاب فى عرض آلامه أو الاندفاع فى مجال القلق أو الرضى بالتشاؤم ، كما لجأ إلى كل هذه الأمور كبار الروائيين وأفرطوا فيها :

وعندما اكتمل نضوجه طرق أهم المواضيع التى اعتز بها « لامارتين » (Lamartine) و « موسيه » (Musset) و « شاتوبريان » (Chateaubriand) ألا وهى : العزلة والذكرى ومرور الزمن . بيد أنه لم يتناولها بحماسة أو بهوى جامح وإنما راح يعالجها بميزان ورجاحة كرجل واقعى يعشق الأدب الكلاسيكى ، تاركاً يراعه للعقل وللحكمة والتأمل والتناسق قبل كل شىء .

كان « فرومانتان » ثانى أولاد طبيب للأمراض العقلية ذى شهرة واسعة ، وكانت أسرته ذات ثراء ، تملك مزرعة فى « سان موريس » (St. Maurice) وهى قرية تقع على مسافة كيلو مترين من « لاروشيل » ومرت طفولته فى هدوء وسعادة . وبعد أن أتم دراساته الابتدائية والثانوية بكلية المدينة التى ولد فيها ، نزح إلى باريس وهو فى التاسعة عشرة من عمره لدراسة القانون بناء على أمر والده الذى قرر أن يبعده هكذا عن شباك حب شغله وهيمن عليه .

ولم يمنع ميل « فرومانتان » الطبيعى إلى الشعر والرسم اشتراكه فى تحرير مجلة (La revue organique de l'Ouest) التى يديرها مواطنه وصديقه « اميل بلترميو » (Emile Beltrémieux) إلى جانب استذكاره دراسته الجامعية :

راح يتحف هذه المجلة من وقت لآخر بقصائده وبنقده للمعارض : وتعرف فى ذاك الوقت على المؤرخين

الكبيرين «جول ميشليه» (Jules Michelet) و« ادجار كينيه » (Edgar Quinet) والناقد الأدبى الفذ « سانت بوف » (Sainte-Beuve) الذين تفضلوا عليه بدعوته فى ندواتهم ، كما اتصل بالفنان الشاب الموهوب « ميشيل كاريه » (Michel Carré) الذى لمع بفنه فى كتيبات عديدة عن الأوبرات . وتردد بصحبته على المتاحف والمعارض ، مما زاد حماسته للرسم بالألوان . ولم يمنع اعجابه بلوحات «ليوناردو دافنشى» Léonard de Vinci) من اجلاله للوحات المناظر الطبيعية للفنانين الهولنديين، ولما أبدعته ريشة الرسامين الفرنسيين «شاردان» (Chardin) و « لوسيور » (Lesueur) ولا سيما « دولاكروا » (Delacroix) .

ولما حصل على اجازة الليسانس فى القانون وبدأ يتدرب على المحاماة ، استيقن أن مستقبله لن يكون فى المرافعات أمام المحاكم ، وإنما فى مجال الرسم . وإن لم يحتفظ التاريخ باسم مؤلف « دومينيك » إلا كأديب ، فلا مندوحة من الاعتراف برسوخ قدمه فى فن الرسم ، إذ استمر ثلاثين عاماً ينظم المعارض للوحاته التى كانت تباع بأثمان غالية ، عدا الأوسمة العديدة التى نالها ، بل إن كثيراً من لوحاته أخذت مكانها فى متحف اللوفر ولا سيما « فلائك فى النيل » و « ضفاف النيل » اللتان رسمهما أثناء زيارته لمصر .

وعزم المحامى الشاب ، بعد تفكير عميق ، على أن يفاتح والده فى موضوع مشاريعه مستسمحاً إياه فى ترك مكتب الأستاذ «دونورماندى» (Denormandie) الذى يتدرب فيه ، ليستطيع أن يشبع رغباته وميوله بالتفرغ لها . لم يوافقه والده إلا بعد جهد شاق مشترطاً عليه أن يختار له بنفسه المرسم الذى سيلحقه به . وقع اختياره على الفنان « ريمون » الذى تخصص فى المناظر الطبيعية ، إلا أن قواعده الأكاديمية وارشاداته وملاحظاته الصارمة لم توافق ذوق الرسام الناشئ الملىء بالهمة ، لذلك نراه يترك أستاذه العنيد ليلتحق بمرسم «لويس كابا» (Louis Cabat) الذى لقنه أسرار الفن وكونه تكويناً متيناً مفيداً .

بدأ أول رحلة له إلى الجزائر فى سنة ١٨٤٦ بصحبة صديقه «أرمان دومنيل» (Armand du Mesnil) الذى اقترن فرومانتان بعد ست سنوات من هذا التاريخ بابنة أخيه . ورسم هناك بضع لوحات عرضها فى السنة التالية . وأحب شمال أفريقيا حباً جماً وظن أن هـــذه المنطقة قد تسمح له باظهار مواهبه الدفينة ، فعاد إلى الجزائر فى سنة ١٨٤٨ وأعجب بالصحراء حتى شغف بها وأفرغ فنه كله فيها .

وبتدقيق النظر فى لوحات « فرومانتان » يشعر الإنسان – على حد قول « أرنست جوبير » (Ernest Gaubert) – « بدقة التناسق وبالمجهود المبذول طواعية فى اتقان واتزان ينمان على محاولته الحد من حماسته ومن فيض ذكرياته . لقد وزع الفنان ألوانه فى روعة ودقة تفصحان عن مدى ادراكه لقيمها . . . حتى يخيـــل للمتفرج أنه يقف أمام جمال رزين عميق متنوع الجنبات دقيقها . إنه جمع كل الصفات الفرنسية والكلاسيكية فى ذوق كامل العذوبة » .

بلغ « فرومانتان » فى لوحاته حد السحر فى إبراز جاذبية استواء الصحراء فى ترامى أطرافها ، واختلاف آفاقها . ولقد أوضح هذه الناحية الناقد الفنى « شارل بلان » (Charles Blanc) المعروف بصرامة حكمه على الفنان فى قوله : « من المصادفة العجيبة أن أكثر ما كان يحبه « فرومانتان » فى الطبيعة الأفريقية ، ليست تعرجات الأرض ، ولا القرى ذاوت الأشجار الوارفة ولا غابات النخيل ولا نافورات المياه النادرة ، وإنما الصحراء التى لا نهاية لها ولا ظل ، والسماء تعلوها فى صفاء » . وقصارى القول إن لوحات « فرومانتان » كانت تمتاز بطابع الدقة والاتزان والاتقان .

عاد « فرومانتان » ، بعد زواجه ، إلى الأرض التى سحرته فهام بها وأقام فيها خلال شتاء سنة ١٨٥٢ –

١٨٥٣ ، وفى هذه الأثناء تجلت فيه موهبة الكاتب المبدع حيث عاد من هذه الرحلة الثالثة بكتابين هما : « صيف فى الصحراء » (Un été dans le Sahara) و « سنة فى الساحل » (Une année dans le Sahel) إن هذه الموهبة المزدوجة والمهارة فى السيطرة على اليراع والريشة جعلت « سانت بوف » يقول : « يتمتع « فرومانتان » بملكتين فهو يعبر بلغتين — لغة اللسان ولغة الألوان — ولا يعتبر هاوياً وإنما فناناً فى كليهما ، حى الضمير ، رقيق ، حاذق ، وغير متكلف » .

نعم ، يتمتع « فرومانتان » بموهبتين ، ولكن الموهبة الأولى ، ونعنى بها الرسم ، هى التى كان يعتز بها ويكرس لها أكثر أوقاته . لقد كف عن الكتابة خمسة أعوام وعندما أمسك بالقلم ، أراد أن يحكى لنا قصة حبه ، فقدم لنا « دومينيك » التى ستقوم بتحليلها فيما بعد

أعد مرسما لنفسه فى باريس أضفى عليه شيئاً من الأناقة والمرح وجعل منه خلوة مريحة يطيب له العيش فيها بين لوحاته التى كان يقوم بعرضها بطريقة منتظمة . ووصف « لويس جونس » (Louis Gonse) مترجم حياة « فرومانتان » ، هذا المرسم بقوله : « إن مرسم « فرومانتان » كان خالياً من الزخرف ولكنه أنيق . يتألق نظافة ونظاماً . يعتبر صالوناً أكثر منه مرسما . تزينه مدفأة كبيرة من خشب الأرو تدعو الجلساء إلى حلو الحديث . ترى على جدرانه لوحة أو اثنتين وقد لا ترى لوحات على الاطلاق . فالحياء يغلب عليه فى عمله كأنه لا يريد من زائره أن يفحص إنتاجه الفنى . أما اللوحة التى يرسمها فكانت دائماً تشغل وسط المرسم فى ضوء ساطع . وفى جوف هذا المكان البعيد عن الضوضاء يأخذ وجه الفنان ملامح الرقة والدعة » .

وفى سنة ١٨٦٩ سافر « فرومانتان » إلى مصر ليشهد الاحتفال بافتتاح قناة السويس . ودون ملاحظاته ويومياته إلا أنها ، للأسف ، لن ترتب أو تنظم ولن يطلع عليها المعجبون به إلا بغد وفاته بخمس سنين ؟ ومع ذلك فقد ترك لوحات عن مصر رغم زعمه أنه لم يزرها لهذا الغرض ، منها : « ذكرى من اسنا » و « الشادوف » و « زراعة قصب السكر » و « الساقية على شط النيل » عدا اللوحتين اللتين ذكرناهما فيما سبق من الكلام واشتراهما متحف اللوفر ؟

لم يكن الشرق البراق ليلفت نظره ، الشرق« ذو الأضواء الذهبية الألوان ، الزاهية ، المتضاربة ، ولمعانه وعتمته » ، بل يرغب ، على حد قوله ، فى الاكتفاء بالأشياء على حالها وأن يستخلص الجمال من مكمنه .

ولقد صرح « جان مارى كاريه » (Jean-Marie Carré) أستاذ كرسى الأدب الفرنسى سابقاً بجامعة القاهرة ، بشأن اللوحات المصرية التى رسمها «فرومانتان» قائلا : «لم يكن عديم الاحساس بالنسبة لتموجات الضوء . . . وإنما كان يفضل عادة امتزاجها وتدرج ألوانها على تشعبها المتوهج ، ويطيب له استعمال الألوان التى بين الناصلة والمشبعة . . . وأن بعض لوحاته المصرية تشبه لوحات الفنان الكبير « كورو » (Corot) ذوات الألوان المتناسقة فى خفة وثقل ... لاهتمامه الشديد بتجانس الألوان وتآلفها » .

قام « فرومانتان » بآخر رحلة له فى سنة ١٨٧٥ حيث زار إيطاليا وبلجيكا وهولندا متفقداً بطبيعة الحال متاحفها ومعارضها الفنية . وكتب فى السنة التى توفى فيها مؤلفه «أساتذة الماضى» (Les Maîtres d'Autrefois) حيث عبر عن تعلقه بالرسم وحبه له .

وفى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٧٦ انطفأت حياته فى قرية « سان موريس » (Saint-Maurice) التى أمضى فيها سنى طفولته . ونال إنتاجه الأدبى ولوحاته حظوة بين صفوة المجتمع . وإذا جعل منه القلم أحد أساتذة الفن النثر الفرنسى ، فان ريشته احتفظت له بمركز مرموق بين أسماء الرسامين المستشرقين .

بدأ « فرومانتان » بقرض الشعر ، وهي الطريقة التي يلجأ إليها أغلب حديثي العهد من المشتغلين بالأدب نظم الكثير من الأشعار التي نشر جزءاً منها — كما رأينا في معرض كلامنا — في مجلة صديقه « بلتريميو » . والواقع أنه لم يكن بالشاعر الملهم . ولم يخف عليه ذلك بدليل أنه ألقى في النار حوالى ستة آلاف بيت من الشعر رآها غير ذات قيمة ولقد أشار في القصة التي روى فيها ترجمة حياته إلى هذه الأشعار دون مداراة فقال : « كانت هذه الأبيات تتصدى لمواضيع مطروقة منذ سنين طويلة . تصف الحياة في الريف وأحاسيس النفس الجريحة والعواطف الحزينة . كانت هذه الأشعار جيدة وذات تركيب بارع غير مقيدة . ارتجالية ، ولكن تغلب عليها الروح الرومانتيكية . صورت شعوراً رقيقا . ولكن في ابتذال . أما الأفكار فكانت ضعيفة هزيلة . إنها محاولة تشبه تلك التي يقوم بها أي شاب يشتغل بالأدب فيعتقد أنه أصبح شاعراً لمجرد نغم موسيقى داخلي يهديه إلى سبيل الأوزان والقوافي » .

تغلبت روح النزاهة والدقة والكمال على هـذا الكاتب ، حتى إنه نادراً ما كان يرضى عن عمله . لقد احتفظ بمذكراته ويومياته عن الجزائر مدة طويلة كان يعيد عليها النظر ويزيل منها الشوائب ويضفي عليها وضوحاً في المعنى ودقة في اللفظ . وما زال يهذبها المرة بعد الأخرى حتى إنه لم ينشرها إلا بعد أربع أو خمس سنوات من آخر رحلة قام بها في شمال أفريقيا . بدأ ينشر « صيف في الصحراء » سنة ١٨٥٦ ، ثم « سنة في الساحل » سنة ١٨٥٨ . ويقول « لويس جونس » عن هذين المؤلفين : « إن الصحراء هي الصيف الأفريقي بأصوائه وألوانه العنيفة وهدوئه المستمر وقيظه الشديد وخشونته وشاعريته العجيبة . أما الساحل ، فهي الجزائر المخضرة الباسمة بسمائها المتلونة الشفافة وألوانها المتنوعة وأضوائها وجبالها المحدودبة وآفاقها المترامية » .

راح « فرومانتان » وهو المراقب الحكيم والرحالة اليقظ ، يفحص المناظر التي تقع تحت بصره . إنه الرجل الجوالة في الصحراء يقضي يومه في الخيمة أو الدوار ويتأمل في الليل السماء الزاهية بنجومها . لقد هضم كل هذه الأشياء الغريبة عنه ، الجديدة عليه . لقد جعل من الليالي الممطرة ومن السراب ، ومن نافورة في ظل النخيل ، ومن نزهة قنص وصيد ، ومن مهرجان سباق ، ومن استراحة في قرية صغيرة ، ومن رجال يغدون في الطرقات على ظهور الحمير ، مشاهد حيوية في كتابيه عن الجزائر ، اللذين يفوقان لوحاته تأثيراً وعمقاً ونبلا .

وعلى كل ، ففي مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه « صيف في الصحراء » التي ظهرت في سنة ١٨٧٤ ، يقص علينا كيف عجزت ريشته عن تصوير شعوره تجاه الجزائر ، فممد إلى القلم والقرطاس . ويقول في ذلك : « لم يكن التحدث عن الشرق بعد أن تناولته أقلام كبار الكتاب جرأة من جانبي . . إن الصدفة هي التي أوحت إلى بالفكرة ولم تطاوعني الريشة كما لم تسعفني القريحة في تصوير ذكرياتي لامكانياتي الضعيفة فدفعني هذا العجز في مهنتي إلى البحث عن أداة أخرى غير الريشة . فأمسكت بالبراع . . إن للعقل أساليب يفهمها ، وللأعين صوراً تفهمها ، واللسان الذي يكلم الأعين غير اللسان الذي يحدث العقل . وليس الهدف من الكتاب تكرار عمل الفنان وإنما لأعبر به عما عجز الرسم عن الافصاح عنه » .

ونحن نسجل هنا ، على هذا الاعتراف ، طابع الصواب والاعجاب . إنه الفنان الذي لا يريد أدبا في لوحاته ولا لوحات في أدبه ، لإدراكه ما للفن وما للأدب من حدود وقواعد .

لم يكمل « فرومانتان » مذكراته عن رحلة فى مصر خلال أكتوبر وديسمبر من سنة ١٨٦٩ على وجه التحديد . ولقد نشرها « لويس جونس » سنة ١٨٨١ فى بحثه الذى كرسه فى ذاك الحين « لفرومانتان » . ونظراً للكمية القليلة التى طبعت منه ، فلم يصل إلا لعدد محدود جداً من القراء ، وسرعان ما نفدت الطبعة . وفى سنة ١٩٣٥ أعاد « جان مارى كاريه » نشر يوميات فرومانتان مصحوبة ببعض صفحات لم يسبق طبعها وجدها فى الأصل المخطوط ، وقدم لها شارحاً الباعث على هذه اليوميات ومزاياها والأسباب التى منعت صاحبها من استئنافها واتمامها ونشرها .

ويجدر التنويه هنا بأن الفضل فى دعوة « أوجين فرومانتان » إلى مصر ، يرجع إلى توصية الكاتب البولندى « شارل ادمون » (Charles Edmond) حيث أضاف اسم « فرومانتان » فى قائمة المدعوين المرموقين لحضور افتتاح قناة السويس ويبلغ عددهم حوالى الألف ، من بينهم الملوك والأمراء والعلماء والفنانين والروائيين والصحفيين . كانت صورة مصر تلازم « فرومانتان » فى أحلامه حتى إنه كتب يقول فى سنة ١٨٤٩ لصديقه «نارسيس برشير » (Narcisse Berchère) « هناك أسماء لا أستطيع ذكرها دون تأثر بالغ من بينها القاهرة » . وعندما تحققت أمنيته قرر اتخاذ أستاذه « ماريلا » (Marilhat) قدوة ، فقد كانت لوحات هذا الفنان الكبير الذى تخصص فى المناظر الطبيعية ، « خير صورة كاملة لرحلة يستطيع هو كتابة نصها بنفسه ، لمقدرته الفائقة على ذلك ، مع مراعاة الدقة والرشاقة فى الإنشاء والتلوين » .

كان « فرومانتان » فى انطباعاته عن مصر كما فى لوحاته ، يحذر ويشك فيما للشرق من غلو وافراط . فهو يتجنب البريق الذى يأسر ويخدع ، باحثاً عن الحقيقة فى إطار الأمانة والدقة دون المغالاة التى تؤدى إلى الشطط . إنه يسعى إلى اللباب ويقصد الجوهر ويبحث عن الميزات العامة الدائمة الثابتة . وهذا التشريح الفنى خدمه أثناء رحلاته فى الجزائر وفى زيارته لمصر .

وهو لا يهتم بالعنصر البشرى ولا بالمناظر الخلابة ، بل بالمناظر الطبيعية وبأشكالها وأضوائها وألوانها . وهو يبتعد عن تصورات الرومانتيكيين المبتذلة وتخيلاتهم التى لا يستسيغها العقل عندما يتناولون الشرق بأقلامهم ، بقدر ما يقترب من سحر الشرق الخفى اللطيف المشوب برقة العاطفة . وعندما يذكر سماء مصر الصافية وألوان صحرائها ونهرها وزروعها وأرضها تستشف فيه دقة الاحساس ورقة الشعور وقوة التعبير . ويقول فى ذلك : « أريد أن أعطى الأشياء التى أراها فكرة مبسطة واضحة صحيحة تحرك النفس وتؤثر فيها بالذكرى التى حركتنى وأثرت فى . . بدون المغالاة المختلفة ، معطياً الأشياء ميزانها الحقيقى ليتذكرها من كان يعرفها ويراها من لم يعرفها » . إن موهبة « فرومانتان » وعبقريته تكمنان فى هذه الكلمات القليلة . وهو عندما يسرد رحلاته لا يشتم منها رائحة العالم فى الآثار أو المؤرخ . وإنما تشعر بأنه تلميذ مولع بترسم خطى « أساتذة العهد الماضى » فى أسلوبهم الهادئ الموسيقى الرقيق المقتضب الذى يشبه الأطياف التى تلهم الشعراء .

إن ما أثار اهتمامه ليس الأهرامات التى نعتها « بالفخامة » ولا المقابر والمعابد التى يصفها « بالبقايا التاريخية » ولا الأقصر ولا طيبة وسقارة ولا أبيدوس ، وإنما النيل وهو ينساب بين سلسلتين من الجبال وبعض المدن كأسيوط وأسوان وقنا ولا سيما القاهرة التى يقول عنها : « هذه التحفة التى تشغل حياة الفنان وتحير فكره . إنها أجمل مدينة فى الشرق . وأؤكد هذا رغم أنى لا أعرف المدن الأخرى » .

وصرح « جان مارى كاريه » الذى لخص الصفحات القيمة التى كتبها « فرومانتان » عن مصر قائلا : « يرجع الفضل « لفرومانتان » فى اعطائنا صورة صادقة ومعبرة

عن مصر فى عصر تفشى فيه ميل المستشرقين إلى التنميق والاستعانة بقالب الغرابة والخيال الباهر والأضواء العنيفة المتناقضة والنوادر والتفاصيل . ولم يصل أى كاتب إلى مرتبته فى وصف وادى النيل فى فصل الخريف بروافده ومناظره الطبيعية وفيضانه وأنواره ولطافة رطوبته . لقد أثر فيه هذا المنظر وحرك أشجانه وحساسيته التى تتجاوب تماماً مع ميوله الفنية » .

ثم يستأنف « جان مارى كاريه » كلامه قائلا : « لم يستطع أحد غيره أن يصف مصر الخالدة فى أواخر الصيف ولا سحر لياليها فى شهر أكتوبر على ضفاف النيل ، وأن يرسم مثله ملامح الريف والصحراء » .

وجاءت حرب سنة ١٨٧٠ وانكسرت فرنسا واستسلم الكاتب لآلام شديدة إلى درجة جعلته يترك استئناف مذكراته عن مصر ويعدل عن نشرها .

وفى كتابه « أساتذة الماضى » الذى يعتبر محاولة رائعة للنقد الفنى ، تناول فيه ملاحظاته وخطراته خلال رحلته فى هولندا وبلجيكا ، ناقلا إلينا ما تأثرت به نفسه من انطباعات وانفعالات ، أفرحته تارة وضايقته طوراً وخيبت آماله تارة أخرى ، ذاكراً عدم رضاه عن اللوحات التى كان يدرسها هناك فى المتاحف بعناية فائقة . وهو يحاول فى كل ذلك أن يستشف طرق ووسائل عباقرة الفن الهولندى والبلجيكى والطابع الخاص الذى يتميز به كل منهم ليحكم عليهم بايجابية الفيلسوف لا المشتغل بالتاريخ .

ونجده يستخرج خصائص الوسط والعنصر والزمن ، ليوضح التباين العميق بين الفن البلجيكى والهولندى . ونراه منهمكا فى إبراز الناحية الفنية عند كل رسام منهم والنمط الشخصى الذى ينفرد به ، ولمساته وشكوكه وأبحاثه ومقتنياته والمؤثرات النافعة أو الضارة التى يستهدف لها والتى تنعكس على فنه فتظهر ، إما قوة شخصيته وقدرته على الابداع ، وإما أنه مجرد مقلد .

وقصارى القول ، أن الأساتذة الذين يستحقون تأييده والرضا عنهم هم أصحاب « الأعمال الفذة » والطابع الشخصى الخاص ، أمثال « روبنس » (Rubens) و « رامبرانت » (Rembrandt) وإن كانت يد الزمن وأقلام النقاد تبعتهما لهذه المدرسة أو لتلك .

ومن الآثار التى تركها « فرومانتان » « رسائل الصبا » و « مكاتبات ونبذ » . ظهرت الرسائل فى سنة ١٩٠٩ ونشرت « المكاتبات » بمعرفة الناقد « بيير بلانشون » (Pierre Blanchon) فى سنة ١٩١٢ . ويضم هذان المؤلفان مجموعة من الوثائق الخاصة والعائلية عن الأديب الراحل لا تزيد فى حياته الخاصة أو العامة أو خلجات نفسه شيئاً جديداً أو تفاصيل غير التى ذكرناها هنا .

منشأ قصة دومينيك

حدث فى عام ١٨٣٤ ، فى مدينة « سان موريس » بجوار « لاروشيل » أن عشق صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، يعيش مع والديه ، فتاة من جيرانه تبلغ سبعة عشر ربيعا ، جميلة الطلعة فى ظرف ، حلوة الملامح فى دلال ، قد فقدت والدها الربان وتقطن مع والدتها الأرملة . وهو يناديها باسم « جنى كارولين ليوكادى » (Jenny Caroline Léocadie) . أما لقب أسرتها فيظل فى طى الكتمان . وطبيعى أن يدخل نفسها شىء من الارتياح لشعور المحبة الناجم عن تقدير حسنها . إلا أن صغر سن العاشق الهائم بها يجعلها لا تكترث به ، ولا تعبر هيامه جدية ، بل وتسخر منه .

وتدور عجلة الزمن وتقترن الفتاة « باميل بيرو » (Emile Béraud) الموظف بمصلحة الأموال المقررة . وهو رجل عادى اختارته بمحض المصادفة ولا تشعر نحوه بتعلق كبير . لم يمنع هذا الزواج الشاب من رؤية « جينى » والتردد عليها والاستمرار فى الولع بها دون جدوى فى الواقع ، للمبادئ القويمة التى تتحلى

بها وواجب العشرة الزوجية الذى يملى عليها المحافظة على شرف زوجها . وكادت تقع بين مخالب الغواية لولا عزة نفسها ونبالة أخلاقها واحترامها لشرفها .

لم يخف سلوك الشاب على والديه اللذين بلغ بهما القلق حداً جعلهما يقرران إيفاده إلى باريس فى سنة ١٨٣٩ ليدرس القانون ظناً منهما أن البعد يطفئ نار الهوى ويقضى على جوى لا طائل من ورائه . وكم سر الفتى للسماح له برؤية حبيبته خلال العطلات الدراسية التى كان يقضيها بانتظام فى « سان موريس » . وشاءت الأقدار فى سنة ١٨٤٢ أن تقع بعض خطاباته الموجهة إلى شاغلة فؤاده فى يد الزوج . ومرت سنتان وتراخت علاقة بطلى هذه القصة تحت ضغط الأحداث .

وفجأة يظهر حادث خطير يذكى نار الهوى الكامنة فى صدر العاشق الولهان . لقد علم الفتى أن حبيبته نقلت إلى دار استشفاء لإجراء عملية جراحية لها وأن حياتها فى خطر . أسرع إلى العيادة الطبية واسترق النظر إلى المريضة لآخر مرة من خلال فرجة بين مصراعى الباب . ولفظت « جينى » أنفاسها الأخيرة فى اليوم التالى ، يوم ٤ يوليو سنة ١٨٤٤ على وجه التحديد ، وهى فى السابعة والعشرين من عمرها الرطب .

ويقابل الشاب فى ردهة دار الاستشفاء الزوج مكتئباً حزيناً ، فيشد كل منهما على يد الآخر فى صمت . والنتيجة : فناء شبابين ، واحد بالموت والثانى بالتلف من جهة ، ومن جهة أخرى بقاء رجلين لا يطيقان النظر إلى بعضهما إلا أنهما يتألمان معاً فى صمت فى هذه اللحظة المؤثرة الشاقة التى جلبها إليهما نكد الطـــالع .

يتردد الشاب على مثوى الفقيدة ليضع بعض الزهور عليه . وينصحه الناس بأن يباعد بين زيارته وأن يلتزم جانب الرزانة . ويجاهر سكان « سان موريس » بأن المتوفاة لم تكن تحظى بشىء غير مألوف من الجمال ، وأنها لا تستحق الاهتمام بها بكل هذا الإصرار . وأن غرام الفتى فى رأيهم ، كان من نزوة الشباب وطيشه ، فلا داعى لهذه المبالاة .

ولكن ما قيمة هذا اللغو ؟ وماذا يعرف أولئك المخرفون الثرثارون عن الهوى الذى يمزق أحشاء رجل مرهف الحس ويحرق قلبه ، وهم يعيشون حياة تافهة مبتذلة لا طعم لها .

إن ما نعرفه نحن ، هو أن صاحبنا المتيم لم يستطع نسيان هيامه الأول فظلت ذكرى « جينى » منقوشة فى فؤاده ماثلة فى ذاكرته . ولا أدل على ذلك من اعترافه المؤثر الذى أدلى به لنا بعد مرور عشرين عاماً على هذه المغامرة ، فهذا الفتى ليس إلا « فرومانتان » نفسه وذلك الاعتراف هو قصة « دومينيك » . وإن كان رأى الأديب الفرنسى « ألفريد دى فينى » (Alfred De Vigny) بأن « التحفة الأدبية هى عمل الشباب الذى ينتجه القلم فى سن الكهولة » ، فان هذه الفكرة تنطبق على هذه القصة بشكل ليس له مثيل .

أهم مؤلف لفرومانتان

بدأ « أوجين فرومانتان » فى تحرير « دومينيك » سنة ١٨٥٩ ، إلا أنه لم يرض عن هذه القصة لما جبل عليه هذا الرجل من دقة حتى مع نفسه ، فأعاد كتابتها بعد سنتين ونشرتها له مجلة « لاريفو دى دوموند » (La Revue des Deux Mondes) سنة ١٨٦٢ ، ثم طبعت على شكل كتاب بعد عام فى دار نشر « بولوز » (Buloz) على أثر ملاحقته المؤلف عدة مرات لمده برواية . وما إن نزلت « دومينيك » إلى السوق حتى قوبلت بحرارة وحماسة من جمهور القراء ولم يتلاش هذا النجاح ، بل امتد واشتد ودام .

وفى رأينا أن الناقد البارع « اميل هنريو » (Emile Henriot) هو أحسن من عبر عن حالة « فرومانتان » النفسية عندما قرر تأليف كتابه حيث يقول بأنها « قصة

حدثت فى سن العشرين وحررت فى سن الأربعين ، أى أنها جمعت شاعرية سن الشباب التى يحملها الزمن على جناح الذكرى ، ويطير بها بين الحقيقة العارية للأحداث وبين الصورة المثالية التى تزيدها الذاكرة جمالا فى التكوين ، مع ما فى ذلك من آمال مرجوة رغم مرور الزمن ، ومن العبرة التى تنتهى بها القصة والتى تعطيها قيمة وروعة لا يتسنى اتقانها على هذا النحو فى سن العشرين ولا جعلها مليئة بتلك الإنسانية الفياضة » .

وقبل الشروع فى تحليل « دومينيك » يجدر بنا الوقوف على السبب الذى جعل هذه القصة تحتفظ رغم التغيرات والتقلبات التى لا حصر لها فى مجتمعنا منذ نشأته — بهذه المكانة المرموقة فى ميدان الأدب الفرنسى ولماذا تهيمن على العقول بهذا الشكل القوى ، وتسيطر على القلوب وتبعث على الاعجاب حتى أصبحت موضوع استحسان متزايد ؟

يرجع السبب قبل كل شىء إلى ما فيها من صراحة وشرف ونبل وابداع وسحر وحقيقة وكبرياء يائسة تضفى عليها إغراء لا مثيل له يظل قائماً بعيداً عن نطاق أية مدرسة أدبية مما يبقى عليها ثوبها القشيب . ثم إلى ما يميزها من تحفظ فى التعبير عن العاطفة وحياة الشعور وطهارة الذكرى وعبقرية السرد ، والإيجاز فى الوصف ، ولأنها كما يقول الناقد الكبير « ادمون جالو » (Edmond Jaloux) أصدق القصص خيالا إذا أردنا التسليم بأن الخيال هو الشعر الطبيعى للنفوس العالية » ، لأنها قصة بطولة فيها حرارة وحماسة وعفة مكتوبة بأسلوب قوى متين صاف شفاف يكشف كما يقول « جالو » أيضاً : « عن اهتزازات احساس مرهف يعرف كيف يجمع فى إطار بهيج بين القصة المثيرة والأحلام الحزينة المضطربة التى تتوغل إلى نياط القلوب توغل بعض الأنغام الموسيقية فى الأسماع » .

ولا يكفى كل هذا ، كما نعتقد ، لاعطاء « دومينيك » ذلك الطابع الخاص الذى يضعها فى مصاف روائع الأدب فى القرن التاسع عشر ، وهى لا تعدو أصابع اليدين عداً ، بل لا بد أن هناك شيئاً آخر . وللوصول إلى نتيجة حاسمة ، يجمل بنا أن نترك الكلام « لفرومانتان » نفسه حيث يسرد إلينا : « أنا لم أتنازل عن شىء ولم أضح بشىء ولم أنس شيئاً . وكل ما فى الأمر أنى أجد نفسى بعيداً عن تلك العهود المنيرة الباسمة التى لن تعود أبداً . فانظر إليها الآن كعهود بديعة جميلة . إنها عهودى التى يسبح فيها خيالى . وأعتقد أن كل إنسان كان له مثل هذه العهود فى فتاء سنه » .

هنا تكمن الحقيقة ومن هنا تنبثق القيمة الصحيحة لكتاب « فرومانتان » . نعم إنه يحسن الكلام فى هذا المجال : فكل رجل منا عاش فى أسطورة خلال سنى شبابه . وتظل « دومينيك » باقية على مر الزمن لأنها تحمل بين ثناياها آمالا ولذات وشكوكاً وآلاماً ، أحس بها كل فرد منا عندما بلغ من سن النضج ، فكم اختلط بجمال المخلوقات والكائنات ، وكم اصطدم بدمامتها ، وكم اهتز طرباً بالسعادة ، وكم تألم أمام الكروب والشدائد . إن ألم الفراق وسعادة اللقاء وتصدع القلب عند الوداع ، ولذة المناجاة ونضرة الابتسامة ومرارة البكاء يوجد كل هذا فى « دومينيك » كما نجدها فى أعماق أنفسنا ، ويسير كل هذا فى أثره وأثرنا كالطيف الملازم له ولنا طيلة حياته وحياتنا . فتوجد بينه وبيننا التجاوب العميق والتوافق التام والصداقة المتينة . وقصارى القول أن عدداً كبيراً من القراء يتعرفون على أنفسهم فى هذه القصة الغنية بالشعور والأحاسيس وبالشاعرية التى تسيطر على الأفئدة وتسحر العقول .

والواقع أن « دومينيك » تشمل موضوعين متداخلين : قصة حب عنيف بقدر ما هو بائس ، ينتهى بفشل ، ومأساة فكرية لرجل موهوب ومثقف يستنتج من أزمات عاطفية ونفسية أنه من العسير التوفيق بين اندفاعات الأحلام ولطمات الحقيقة القاسية ،

فيقضى بقية أيامه فى قرية مجهولة بعيداً عن العالم ، بين زوجته وولديه، قد تغاضى عن الشهرة وراح يبحث عن السكينة فى النسيان والعزلة والتجرد عن مباهج الحياة .

ويتناول كلا الموضوعين فى الواقع ، رغم ما فيهما من خيال ، قصة فرومانتان نفسه فى شبابه وكهولتـــه وحياته العاطفية والعائلية .

وقد أهدى « فرومانتان » كتابه « لجورج ساند » قائلا فى تواضع :

« سيدتى ، هذا هو الكتيب الذى اطلعت عليه وإنى جد آسف لنشره دون ما تغيير ، أى بكل ما فيه من عدم الخبرة التى تنم عن باكورة عملى . ولا علاج لمثل هذه العيوب على ما يبدو لى . . ولا يسعنى بعد فقد الأمل فى تصحيحها إلا أن أتركها على حالها . ولو كان الكتاب أكثر جودة لسرنى اهداؤه إليك. فهل تسمحين لى ، كصديق من أصدقائك المتواضعين ، أن أتركه على حالته الراهنة تحت رعاية اسم سبق أن احتميت فيه ، وأكن له كل اعجاب وولاء واحترام ؟ »

لم يذكر « فرومانتان » كل ظروف حياته فى « دومينيك » . فما الكتاب إلا رواية وليست مذكراته اليومية التى عنى بتقديمها إلينا . لذا راح يختار ويحذف ويغير ويؤلف . وهو يوعز أكثر مما يعرض . ويتحاشى بعض التفاصيل التى لو ذكرها لأفصحت لنا عن أمور كثيرة تتعلق بغرامه ، ولكن يلوح أنها كانت تبدو له غير ذات قيمة أو بلا فائدة .

ولو أمعنا التفكير لوجدناه على حق . فان ما جبل عليه من سجية خاصة تملى عليه ما يجب الاعتراف به ، وما يحسن السكوت عليه ، وذوقه الذى يدفعه إلى تجنب الضار أو علاجه ، وذلك التأثر المكتوم وتلك الأحاسيس الخفية التى تنساب فى طيات كتابه ، وجو الأحلام والتخيلات الذى يغشاه، والشعور الفياض الذى تميز به ، والميل إلى التأمل الباطنى الذى يرفع من شأنه ويسمو به ، تجعل من هذه القصة ، قصيدة الحنان بلا مراء ، وأنشودة مرحة ورزينة فى نفس الوقت . ولا يسعنا أثناء القراءة إلا أن نفكر فى مرور حياة الإنسان الضعيفة على هذه الأرض وتيار الزمن الذى يجرف كل شيء أمامه .

وعلاوة على ذلك ، فاذا كانت التعديلات والتنقيحات التى يقوم بها الكاتب تبعدنا عن الصحة الدقيقة ، فانها لا تضر بصحة الكتاب الذى وصل إلى الهدف المنشود : فهى من جهة قصة تسحرنا بمهارة الفن الذى يرويها به ، ومن جهة أخرى فهى حب ضائع . ولقد وفى « فرومانتان » المغامرة حقها ، وإن لم يسردها كاملة ، بيد أنه من المستحيل أن نفصل بين ما فيها من قوة وتأثير وبين وجه الكاتب ومصيره الذى وضعه بين مطرقة الإيمان وسندان الشك .

ويقول الأديب « مارسيل ارلان » (Marcel Arland) : « أن أمتع صفحات الرواية ، وأكثرها وصولا إلى أعماقنا واقناعاً لنا ، ليست تلك التى يظهر فيها الهوى بصورة مكشوفة ، وإنما التى نرى فيها ذلك الهوى يتردد ويتجاهل نفسه . ويكفى للكاتب أن يأتى بذكر صوت أو يصف جواً أو نوعاً من الأضواء ليكشف بفنه للقارئ عن تأثر بالغ الغموض وعن طور صادق من أطوار مأساة .

وعوداً منها إلى التحويل والتغيير والتعديل الذى كان يقوم به فرومانتان ، يجمل بنا التنويه هنا بأنه أخفى شخصيته تحت اسم « دومينيك دى برى » (Dominique de Bray) وهو نبيل ريفى فى الأربعين من عمره ، متواضع ، فاضل ، رزين ، يملك ضيعة شاسعة فى قرية « ترامبل » (Trembles) الذى يضطلع بالعمودية فيه .

وبعد أن وجد « طريق الحكمة » راح يقضى وقته فى رعايته لأهله وإدارة أملاكه بنفسه والعناية بمصالح

مواطنيه ، ومزاولة رياضته المفضلة : الصيد . وهو يساعد الذين عضهم الدهر بنابه ، محبوب من كل الناس ومحترم الجانب منهم جميعاً . (هكذا يقدم نفسه لنا فى ديباجة طويلة قبل سرد ذكرياته القديمة — ولكن بعد سنين عديدة من عودة الهدوء والسكينة إليه) .

أما الفتاة الرشيقة المدللة التى أحبها فى شبابه — وتدعى «جينى» — (Jenny) فكانت تعيش حياة متواضعة ، بل تافهة بين زوج موظف وثلاثة أولاد . ويطلق عليها « فرومانتان » اسم « مادلين » وحولها إلى امرأة من الطبقة الراقية تقيم فى قصر ، ولها مقصورة فى دار الأوبرا . وإذا كانت « جينى » لفظت أنفاسها الأخيرة فى ريعان الشباب ، على أثر عملية جراحية أجريت لها ، فانها كبطلة للرواية لا تموت ، بل يهجرها « دومينيك » فى يوم من الأيام ولا يعود لرؤيتها أبداً .

أما « اميل بيرو » (Emile Béraud) الموظف فى مصلحة الأموال المقررة وزوج « جينى » فيجعل منه « فرومانتان » شاباً طويل القامة ، مؤدباً أنيقاً من أسرة نبيلة له ثروة طائلة . ويطلق عليه اسم « الكونت ألفريد دى نييفر » (Alfred de Nièvres) .

وأدخل فرومانتان ، فى قصته ، إلى جانب هؤلاء الأشخاص الثلاثة الأساسيين ، ثلاثة آخرين : « جولى » (Julie) أخت مادلين ، وأوجستان (Augustin) مدرس دومينيك و « اوليفييه دورسيل » (Olivier d'Orsel) زميل دومينيك فى المدرسة وله صلة قرابة بالأختين . ورغم الأدوار الثانوية التى يقوم بها هؤلاء الأشخاص ، فان وجودهم يعطى للقصة روحاً حيوية ومرونة وإطالة للأحداث ، ويضفى على اعترافات « فرومانتان » شيئاً من الخيال .

وفى هذا كله ، برهان على أنه ، إلى جانب كونه فناناً عظيماً وأديباً ذا أسلوب فذ ، كان يستطيع أيضاً أن يصبح روائياً ممتازاً ذا مهارة فى مزج الخيال بالحقيقة ومزج الابداع بما يجرى فى صميم نفسه .

ويضع « دومينيك » بيننا وبينه زميلا له يقوم بمهمة الكشف لنا عن حب « فرومانتان » ، ذلك الحب الوحيد الذى امتلك عليه حواسه وهيمن عليه ولكنه لم يتحقق .

ويقول بطل القصة لزميله هذا : « أن ما سأقوله لك عن نفسى شىء قليل لا يتعدى بضع كلمات : وهو أن قروياً عشق الأدب وغاب فترة من الزمن عن قريته ، ولم يرض عن نفسه كأديب فيعتزل الكتابة ، ثم يعود إلى الدار التى ولد فيها ليقضى بقية أيامه » .

فقد « دومينيك » والديه منذ نعومة أظفاره ، ثم شب فى ضيعة « ترامبل » بين عمة وخدم . بمرح الطفل فى الحقول . وهو يتمتع بقوة البنية مع ميل إلى الوحشة وعدم الطاعة . له زملاء من أولاد الفلاحين يلعب معهم . مولع بالأساطير والخرافات وبكل ما يراه . ويقول عن نفسه : « رغم ما كان يبدو على من انشراح ومن رفع الكلفة بيى وبين رفقائى فى القرية ، كنت أشعر بالوحدة فى الواقع . فقد كنت غريباً عنهم بعنصرى ، غريباً بمركزى ، فى شقاق مستمر بين نفسى والمستقبل المجهول الذى ينتظرنى . . . ولكن رسخت قدماى دون أن أدرى ، والله يعلم بأى رباط متين توثقت مع الأماكن التى سأضطر إلى تركها فى يوم من الأيام ، وبأسرع وقت . وتطبعت فى نهاية الأمر ، بعادات لا تؤدى إلى شىء اللهم إلا إلى جعلى مزدوج الشخصية سوف تعرفونه فيما بعد ، نصفه فلاح ونصفه فنان أو يجمع هاتين الصفتين معاً دون أن تتغلب احداهما على الأخرى » .

تولى تربية « دومينيك » وتعليمه المدرس الشاب « اوجستان » (Augustin) « وهو ذو عقل ناضج مستقيم ، دقيق . قد تغذى بالقراءات الكثيرة . له رأى فى كل شىء ، سريع التصرف ولكن بعد روية ، عملى وطموح فوق كل هذا » .

أصبحت حياة هذا الصبي بفضل مدرسه ، خاضعة لقواعد الطاعة ، ومنظمة بفضل الساعات المكرسة للدراسة . إلا أن « دومينيك » لم ينس عاداته فى الجولان والعدو فى الحقول . ولع بعادات الطيور وروائح الحقول فراح يتجول بين الأحراش ومزارع القمح والأودية ، بين الرياح العاصفة والحر الشديد ، والأيام الممطرة والليالى الجميلة . أنه يعشق الخريف ، ولكن الضباب الذى يكسو السماء فى شهر ديسمبر ، والأمطار الغزيرة التى تروى القرية ، كانت ترغمه على الانكماش ، دون أن يقلع عن استمتاعه بجاذبية الطبيعة .

« كان السكون الذى يخيم على « ترامبل » لا يمكن لقلم أن يصفه . فكنت خلال أشهر الشتاء الأربعة ، أجمع شتات هذا العالم من المكان الذى أحدثكم منه ، أوجزها وأركزها وأجتهد فى جعلها فى حوزتى بما فيها من خفة ورقة وخيالات وذكريات وصور ، تبدو لى الحياة فى كنفها ، خلال ثمانية الأشهر الباقية من السنة ، كأنها حلم جميل » .

أما « أوجستان » فيظل عديم الاحساس إزاء هذا الجمال ، وينكب بحماسة على كتابة الدراما والكوميديا التى يتلوها على تلميذه الذى لا يكترث بها . ثم جان وقت الحاق « دومينيك » بالمدرسة . وكانت كارثة بالنسبة له أن يترك الجنة التى أمضى خمسة عشر عاماً من عمره فيها . وامعاناً من « أوجستان » فى رفع معنوية تلميذه ، يقول له بلهجة مفخمة : « اترك « ترامبل » ولا تفكر فيها اطلاقاً ، لا تفكر فيها إلا فيما بعد ، عندما تسوى حسابات ثروتك . فالريف ليس لك ولا العزلة التى قد تقضى عليك . وأنت تنظر دائماً إلى عل أو إلى أسفل . والنظر إلى أعلى يا عزيزى معناه الوصول إلى المستحيل ، وإلى أسفل معناه رؤية أوراق الشجر اليابسة . وليست الحياة هنا ، وإنما فى نظرتك إلى الأمام . إنك على ذكاء وافر وثروة طيبة واسم ضخم . وهذا القدر فى جعبتك المدرسية يصل بك إلى كل ما تنشده » .

وبعد أيام يصل « دومينيك » إلى مدينة «اورمسون» (Ormesson) ويدخل المدرسة حيث يبقى فيها ثلاث سنوات . ويصادق فتى من سنه أشقر نحيفاً ، ضعيف الصحة ، يحمل اسما من أقدم الأسماء وأبرزها فى المدينة « اوليفييه دورسيل » . وله عم وابنتا عم .

« وإحدى هاتين البنتين تدعى « جولى » والأخرى « مادلين » التى كانت تكبرنا بسنة تقريباً تخرجت من الدير منذ قليل . وهى بيضاء البشرة تدل ملامحها الفاترة على حياة العزلة وانعدام التأثر . لها عينان يغلب عليهما الوسن ، ليست بالطويلة ولا بالقصيرة ولا بالبدينة ولا بالنحيفة ، غير ظاهرة الحصر الذى كان فى حاجة إلى اكتمال ووضوح . يصفونها بالحسن البالغ ، وكنت أردد ذلك طواعية دون انتباه ودون أن أعتقده » .

لم يكن « أوليفييه » فى أناقته وغرابة شمائله وضياعه لوقته وخلفه لمواعيده ولعبه الورق واختفائه وظهوره وكراهيته للقراءة ، وعدم اهتمامه بما يجرى فى العالم ، واقتناعه بآرائه ، بالرجل المثالى الذى يصلح «لدومينيك» ، ولا بالصديق الذى يستطيع رفع معنويته وإحاطته بعطفه فى الوقت الذى « يدخل فيه الحياة دون أن يكرهها بصحبة عدو لدود لا يفارقه : هو نفسه » .

ويبدأ فى تحليل نفسه والتدرب على انتقاد أفعاله دون رحمة ، مما سبب له اضطرابات وحالات ذهول وهياج أدت إلى إصابته بأزمة فى الوقت الذى بلغ فيه سبعة عشر عاماً .

فترك المدينة وراح يمضى الساعات الطويلة بين أحضان الطبيعة الباسمة السخية المليئة بالنور المشبعة برائحة الخضروات ، المنتعشة بالربيع المشرق الذى يؤثر فيه إلى حد البكاء . ثم يعود لا متعباً من هذه النزهة الطويلة ، وإنما ممتلئاً بالتأثر الغريب . ويسدل المساء أستاره ، وبينما هو يسير فى أحد شوارع المدينة ، يجد نفسه ، على حين غرة ، وجهاً لوجه مع « مادلين »

بنظراتها الهادئة ووجهها الأبيض فى صحبة والدها وأختها :

« فقالت لى : كيف ! أنت هنا ؟ » .

« إنى لا أزال أسمع هذا الصوت النقى الخفيف النبرات الذى تشوبه لهجةأهل الجنوب والذى اقشعر منه بدنى وقتئذ . وتناولت اليد الممتدة إلى ، يداً صغيرة رقيقة رطبة جعلتنى أشعر بدفء يدى الملتهبة . وكنا قريبين من بعضنا إلى درجة جعلتنى أرى ملامح وجهها بوضوح بشكل راعنى لمجرد الفكر فى أنها هى الأخرى تستشف وجهى .

« قالت : هل أفزعناك ؟ »

« فهمت من تغير نبرات صوتها ، إلى أى حد كان اضطرابى ظاهراً . ولم يكن شىء فى العالم يستطيع أن يبقينى لحظة واحدة فى هذا المأزق . ورحت أتمتم بما لا أدرى ، وفقدت صوابى ، وأسلمت ساقى للريح فى طيش وحماقة » .

عاد « دومينيك » إلى غرفته مسرعاً ليدون « سلسلة من الأمور التى لم يك ينتظرها » . إنه يشعر بأن قلبه هو الذى يملى عليه هذه الصفحات الملتهبة التى ظل يكتبها إلى ساعة متأخرة من الليل ، دون توقف . وعندئذ ، عاد إليه الهدوء ونام فى اعياء لذيذ . ومنذ هذا الوقت ستطارده صورة « مادلين » أينما حل وتظل ماثلة فى مخيلته وفى قلبه . وانتهز الشاب المحب ذهابها مع والدها إلى إحدى مدن المياه للعلاج ، ليتغذى بالذكريات فى الجو الذى اعتاد العيش فيه . فصدى صوتها المنطفىء ، وعطر شعرها ، وخفخفة ثوبها ، كل هذه التخيلات كانت تهز مشاعر « دومينيك » الخجول المتحرق شوقاً .

عادت « مادلين » بعد شهرين « أكثر فتنة وجمالا من أثر الحياة الطليقة التى قضتها فى سرور وسط أحداث مختلفة » . قامت بين الفتاة التى اكتملت أنوثتها وبين الشاب المراهق، عقبات عديدة . فقد تزوجت «مادلين» بالكونت « ألفريد دى نييفر » (Alfred de Nièvres) الذى تعرفت به خلال وجودها فى المصيف . وسواء أجهلت أم تجاهلت غرام « دومينيك » لها ، فانها طلبت منه أن يظل صديقها وصديق زوجها . وكظم الفتى ألمه واعداً اياها بسماع نصيحتها .

بعد أن انتهى « دومينيك » من دراسته فى مدرسة « اورمسون » ، قصد باريس ليكمل دراسات أخرى . أية دراسات ؟ لا ندرى ! إنه لم يستطع أن يرسم لنفسه حياة غير التى اعتادها حتى الآن . لم يخفف هذا التغيير من آلامه ، بل زادها ضراماً وحدة . وتلاقى مع مدرسه ومع « اوليفييه » زميل دراسته الذى انغمس فى الملاذ . واستسلم « دومينيك » لداء تحليل نفسه وأعماله ، حتى أضناه وأتلفه يوماً بعد يوم . ويقول فى ذلك :

« أصبحت مرتاباً ، منعزلا ، أجالس زملائى القدامى وأحذر الاتصالات الجديدة ، وأتجنب بقدر المستطاع الاحتكاك بالحياة الباريسية التى تصقل الطباع وتذللها إلى حد الابتذال . لم يبهرنى بريقها ولم يزعجنى ما تعد به من شهوات وطموح ساذج . . . كنت وحيداً أو أكاد ، لأن « أوجستان » لم يكن حراً مستقلا ، وأدركت من أول يوم أن « أوليفييه » ليس بالرجل الذى يصادقنى طويلا » .

إنه يشعر بأن قواه تخونه وأن شجاعته تنهار . وعندما ولى الشتاء وجاء الجو الصحو ، ذهب « دومينيك » إلى إحدى الحدائق العامة الكبيرة فى العاصمة ليتنزه فيها . وكم كانت دهشته عندما سرى عنه غمه وخموله . لم تفارقه صورة معشوقته أثناء تجواله بين الأشجار . وعندما سمع تغريد الطيور حدث نفسه قائلا : « كيف . . . ألا تعرف أنى أحبها ! ألا تعلم أنى من أجلها وبسببها أفنيت حياتى وضحيت بكل شىء حتى بالسعادة التى بلغت حداً من البراءة ، جعلتنى أظهر لها أن ما فعلته كان من أجل راحتها ! سوف تعتقد أنى مررت بجانبها

دون أن أراها ، وأن حياتينا سارتا جنباً إلى جنب دون امتزاج أو تلامس كجدولى ماء يجرى كل منهما فى سبيله ! وعندما أقول لها فى يوم من الأيام :

« مادلين ! ألا تعلمين إننى أحببتك كثيراً ؟ »

فترد على قائلة :

« أصحيح هذا ! » . . ولكنها لن تكون فى السن التى تسمح لها بالاعتقاد فى كلامى .

ويدعو دومينيك أثناء عطلته المدرسية « أوليفييه » ومادلين وزوجها — المقيمين فى قصر فى ضواحى باريس — لتمضية شهرين فى دار « دومنيك » الريفية ، ويقرب الصيد والرحلات « دومينيك » من « مادلين » التى لم تزر أبداً هذا المكان الهادئ الذى يبعث على التأمل . ولذا تسر إليه بلباقة قائلة : « إن بلدك يشبهك ، وإنى توقعته بمجرد النظر إليك . إنه مكان شجى هادئ فيه دفء جميل . لا شك أن الحياة فيه هادئة تعين على التأمل والتروى . والآن أجد التفسير لكثير من تصرفاتك الغريبة التى تنبثق من صميم طبيعة موطنك » .

وتزداد الصداقة توثقاً بينهما وتتوطد . لقد عرف كل منهما صاحبه ، مما زاد فى تقدير كل منهما للآخر . وبالرغم من مطابقة أفكارهما واندماج انطباعاتهما وتناسق شعورهما فإنهما لم يفتحا قلبهما عما يكنه الواحد منهما للآخر .

ولكن يرتخى فجأة رباط ذلك الود بعودتها إلى باريس ، أى إلى الحياة الصاخبة المضطربة . . . و « دومينيك » الذى سعد بوجود « مادلين » معه لمدة شهرين وفى بيته ، أصبح لا يستطيع رؤيتها إلا بمشقة لكثرة انشغالها بزياراتها وحفلاتها وواجبات الطبقة الراقية . وتمر الأيام فى أثر بعضها دون أن تبعث إليه بما يطمئنه . وعندما يحالفه الحظ فيراها ويقابلها ، فانها إما تستمع باهتمام إلى ما يقوله لها ، وإما أنها تبدى حذراً من جهته ، مما يمنعه من أن يبوح بأسرار قلبه فى حرية تامة .

ولما تملكه اليأس وسئم هذه الحالة التى لا آخر لها والتى لم تجلب له العلاج لعذابه ، أعلن أنه سيقوم بسفر طويل ، ولكنه يعود بعد بضعة أسابيع ، ويزور « مادلين » وتفهم من أول نظرة أنه يرجع إليها منهوك القوى ، متعطشاً لرؤيتها . فلم تتمالك نفسها من القول له : « إنك أقلقت بالى عليك كثيراً ! » .

رأت أن من واجبها مساعدته على الشفاء من حبها ومن الآلام التى سببتها له . وأدركت هى الأخرى أن ذكرياتها تحمل لهيباً ولكنها حاولت جاهدة اطفاءه بمحاولتها التجاوب مع أسرار « دومينيك » الدفينة . راحت تتلمس الأعذار لتقابله خارج منزلها وتضرب له مواعيد فى أماكن هادئة ولكن غير بعيدة عن قصرها

وهنا تبلغ رواية « فرومانتان » ذروة الشعور النبيل والغرام العفيف ، فأمامنا شخصان يحبان بعضهما فى الخفاء ولكنهما شريفان وفيان يدركان واجبهما ويحاولان الابتعاد عن بعضهما بمحض إرادتهما وعقلهما . بيد أنهما بشران : فالمهمة الشاقة التى التزما بها ، والقرار الدقيق الذى اتخذاه فى التزام نوع من الصداقة الغرامية ، أسلمهما للضنى والهلاك . إنهما يشعران بوصولهما إلى قمة الاغراء الوعرة التى ليس بعدها إلا السقوط فى الهاوية المخيفة . وكادت قدم « مادلين » تزل من جراء الدور الطويل الذى قامت به كأمينة للسر وللذكرى ، وكطبيبة للنفوس .

و « دومينيك » يعلم أن للشجاعة حداً دلت عليه بعض التجارب ، وأن الفضيلة إذا تعرضت للأهواء المتلاحقة فإنها تصبح فى خطر ، وأن أكثر الأمراض عدوى هو المرض الذى أصابه ويريدون علاجه منه ، فيصرح « لمادلين » قائلا :

« أنا رجل بائس لا قلب لى ولا شرف ، لم أعرف كيف أنجو بنفسى ، وأنت تأتين إلى وأنا أضيعك !

« مادلين » لست فى حاجة إليك ، لست فى حاجة إلى مساعدتك ، لا أريد منك شيئاً على الاطلاق ، لا أريد مساعدة أشتريها غالية ولا صداقة أثقلتها بالحاحى ، وقد تقتلك . وسواء أتألمت أم لم أتألم فهذا شأنى . . فلننفصل وهو الأفضل . لنكف عن رؤية بعضنا ولننس بعضنا . ولأول كلمة أفهم منها أنك فى حاجة إلى سأهرول إليك ! » .

« واتخذت موقف المريضة المنهوكة القوى التى تتعذب من سماع أمور جدية وقالت : « إذن فلم اقترحت على أموراً لا يمكن تحقيقها ؟ إنك تضطهدنى كيفما شئت . اذهب يا صديقى ، أرجوك أن تذهب بعيداً عنى . فأنا مريضة اليوم وليس عندى ما أسديه إليك من نصح ، فانك تعرف أكثر منى نتيجة مثل هذا القرار عليك . فاتخذ القرار الذى تراه فهو الحد الذى سيكون منطقياً : فالتقدير الذى أكنه لك ، والصداقة التى تكنها لى ، لا يسمحان لى بالشك فى نيتك » .

ويتركها « دومينيك » مضطرب الفؤاد دون أن ينطق بكلمة . ويلجأ إلى « أوجستان » الذى تزوج وأصبح سعيداً بكفاحه من أجل تحسين مصيره . ويصمم على عدم رؤية « مادلين » ولكن سرعان ما ينهار هذا العزم .

وفى يوم من الأيام دعته صديقته إلى الأوبرا وقام بينهما سوء تفاهم زاد من آلام « دومينيك » الذى تسلم بعد ذلك رسالة قصيرة من « مادلين » جاء فيها : « إذا كنت تكن لى أدنى صداقة ، فلا تلاحقنى بإلحاح ، أنك تؤلمنى بلا جدوى . وطالما احتفظت بأمل انقاذك من خطأ ومن جنون ، ولم أدخر وسعاً لتحقيق ذلك . أما اليوم فلدى واجبات أخرى أهملتها كثيراً . فتصرف كأنك لا تقطن باريس ولو لمدة وجيزة على الأقل . وقولى لك : إلى اللقاء أو الوداع يتوقف على تصرفك »

أغضبته هذه الرسالة إلى درجة جعلته يتخذ قراراً حازماً بعدها . فترك شقته وأقام فى حى بعيد وبدأ تجربة جديدة وحياة جديدة . لم يدفعه اليأس إلى اتخاذ هذا الموقف وإنما عزة نفس سليمة .

وهنا يظهر بوضوح انقطاع المؤلف عن الروح الرومانتيكية . لو كان من شباب أوائل القرن التاسع عشر لأضاع وقته فى الانتظار ، ولتلذذ بالألم ، ولانفجر فى البكاء . ولكن بطلنا ، على عكس ذلك ، قاوم وقاوم بشدة :

« لم أكن بعد ، مراهقاً يقف به أقل حزن فى المنعرج اللين للشباب . . . ولم أغلق على نفسى المنافذ وإلا كنت اختنقت . ولكنى أدمجت نفسى فى دائرة عقل مجد ، نشيط ، عدو للخرافات منكب على العلوم والتخصص الفنى . . . أما أعصابى التى ما زلت أوالبها بالرعاية والعناية حتى الآن ، فكنت أروضها على احتقار كل ما فيه سقم ، واحتضان كل ما هو متين وسليم » .

ويضيف قائلا — وفى هذا نقد قاس للرومانتيكية — « إن ضوء القمر على ضفاف نهر السين ، والشمس الدافئة ، والاسترسال فى الأحلام على شرف النوافذ ، والتنزه بين الأشجار ، والقلق الذى يساور النفس ، والاطمئنان الذى يجلبه شعاع الشمس ، وانحراف المزاج الذى يسببه لى تساقط الأمطار ، والأفكار النيرة التى توحيها إلى نسمات الهواء ، كل هذا الضعف الذى ينتاب القلب ، وتلك العبودية التى تسخر النفس ، والعقلية الصغيرة والأحاسيس العنيفة ، كل ذلك كان موضع بحث ودراسة وفحص ، خرجت منها بأنها أمور لا تليق بالرجولة ، كما أنى حطمت تلك الخيوط المتعددة الضارة التى نسجتها لى يد التأثيرات والعلل » .

وانقطع إلى النشاط ، وانكب على القراءة ، وراح ينتقى من الأشعار العديدة التى نظمها زماناً ، أهمها وأحسنها لينشرها دون أن يذكر اسمه . واهتم بالشئون العامة لوطنه وألف كتابين عن المشاكل السياسية التى

تشغل أهل بلاده ، ونالا نجاحاً كبيراً . وبعد هذا الإنتاج الفكرى المحموم ، استجم « دومينيك » وأخذ يستعرض معرفته ومواهبه ، ثم حكم على نفسه حكماً غير عادل فى نظرنا ، حيث اعتبر نفسه رجلا ممتازاً ولكن قليل الموهبة . . .

وبعد عزلة دامت سنتين ، نمى إليه خبر مرض « جولى » التى لم يبادلها أوليفييه لوعتها وغرامها . وأن أختها مادلين توالى السهر عليها رغم ما بها من هزال وضعف . لم يتردد لحظة واحدة فى زيارة الأختين اللتين تطلبان منه البقاء معهما بضعة أيام فى قصرهما . شعرت « مادلين » ، عندما رأته بعد هذه الغيبة الطويلة بانتعاش وقلق وارتياح وتأثر فى نفس الوقت . وقامت بحركات تدل على أنها فقدت رزانتها ولم تعد تسيطر على أعصابها . وفى ذات أمسية بينما كانت تتهادى فى حديقة القصر ، لمحها « دومينيك » وتبعها . وما إن سمعت وقع أقدامه حتى عادت أدراجها مسرعة إلى القصر : « وأدركتها فى اللحظة التى دخلت البهو الصغير الذى اعتادت قضاء ساعات يومها فيه ، فقالت لى :

« عاونى على ثنى الشال » . وكانت نظراتها تنبى بأنها لا تدرى ماذا تفعل . وأمسك كل منا بطرف القماش الطويل المزخرف ، وثنيناه فى اتجاه الطول فأصبح كالشريط الضيق العرض . واقتربنا من بعضنا ولم يبق علينا إلا أن نضم طرفى الشال إلى بعضهما وإذا بالطرف الذى فى يدها ينفلت فجأة إما عن سهو أو عن اضطراب . وتقدمت نحوى خطوة أخرى ثم ترنحت وسقطت بين يدى كتلة واحدة . فأمسكت بها ، واحتفظت بها ملتصقة إلى صدرى بضع ثوان ورأسها مرتم إلى الخلف ، مغمضة العينين ، باردة الشفتين . غمرت هذه المخلوقة العزيزة بقبلاتى التى تركتها نصف مائتة ، فاقدة الوعى . ثم انتابها تقلص مرعب فتحت على أثره عينيها وانتفضت قائمة على أطراف أصابعها لتصل إلى مستواى ، وراحت تعانقنى بكل قواهـــا وتقبلنى بدورها . أمسكت بها من جديد وكأنى دفعتها بهذه الحركة إلى أن تدافع عن نفسها دفاع الفريسة التى تتخبط فى يأس . وشعرت بأننا سنضل الطريق ، فأطلقت صرخة أخجل أن أقول عنها إنها تشبه صرخة من يحتضر ، فأيقظت فى نفسى الغريزة الوحيدة التى بقيت لى كبشر : « الرأفة . . فهمت أنى كدت أجعل منها ضحيتى . ولم أدر هل كانت هذه الصرخة بدافع من شرفها أم خوفاً على حياتها . وكففت عن ضمها . ولا يحق لى الافتخار بهـــذا التصرف الكريم ، لخروجه عن إرادتى وللنصيب الضئيل فيه للضمير البشرى » .

وبعد هذا المشهد المؤثر الذى احتفظ فيه البطلان بشرفهما وكشف كل منهما عن مكنون صدره للآخر ، ونسيا واجبهما برهة أمام حبهما الجارف المخلص ، هربت « مادلين » مذعورة كأنها أفلتت من قبضة « إنسان شرير » .

ولاقاها « دومينيك » بعد بضع ساعات . ورغم ما كانت عليه من اضطراب ، استطاعت السيطرة على أعصابها وقالت له : « إنك سترحل غداً . . . ولن نتقابل أبداً ، أسامع أنت ، أبداً ! لقد وضعت بيننا العائق الوحيد الذى يستطيع أن يفرق بيننا دون أمل فى التلاقى . . . سأبذل كل جهدى لأنساك ، وانسانى أنت بدورك فهو أمر هين . . . يا صديقى ! كان لا بد من الوصول إلى هذه النهاية . آه لو عرفت كم أحبك ! تأكد أنى لم أك لا تجرأ للتصريح لك بهذه الجملة البارحة ، ولكنى اليوم أستطيع أن أبوح بها طالما أنها ستكون سبباً لفراقنا . . . » .

لم ينطق « دومينيك » بحرف واحد . وعندما لاح الصباح ترك القصر دون أن يرى أحداً . وانفصمت نهائياً عرى العلاقة التى ربطته « بمادلين » عشر سنوات .

وعاد أدراجه إلى مسقط رأسه ليعيش فيه ما تبقى من سني عمره .

وراحت العرى العديدة التي تربطه بأرض أجداده وبأصله وبأمواته تهيمن عليه تدريجياً . ليتزوج ويبني عشاً ولن يبقى من حبه القديم غير الذكرى . وراح « دومينيك » بين مناظر الطبيعة التي ألفها في صباه ، وبين متابعته دورات فصول السنة ، وبين اطمئنان النفس وتأثرها وجهادها وتألمها ، بدرس نفسه تحليلا وتشريحاً وتآخياً مع الملتفين حوله . غير أن استقصاءاته السيكولوجية من مجال الرغبة التي لا يمكن تحقيقها والسعادة التي لا يمكن الوصول إليها ، فلن تسكب في صدره القلق أو الاضطراب .

* * *

يقص علينا « أوجين فرومانتان » في فصل من روايته أنه تناول من مكتبه ذات يوم عدداً من كتب معاصرة وحاول ، دون تحيز ، أن يعرف مدى نفعها ودوامها . وتبين له أن قلة منها تحوز هذين الشرطين مدى القرون . وكان هذا النوع من الحكم على كثير من العقول الممتازة ، كفيلا باقناعه بأنه لن يكون في عداد خيار المفكرين ، حتى إنه قال عن نفسه : « لو أن ملاحاً كان يأخذ النفوس الفاضلة في قاربه ، لتركني دون شك على الشاطئ الآخر للنهر » .

لا يا سيد « فرومانتان » إنك مخطئ في تقديرك هذا ، واطمئن فان الملاح لم ينسك ، صدقني . إنه نقلك في زورقه مع دومينيك ، واجتاز النهر بسهولة ووصل إلى الضفة المقابلة ، تاركاً بذلك اسمك يلمع في سجل تاريخ الأدب .